

## الوعي الثقافي المهزوم ومحورية الأرض في أروقة الصراع: الشباب وعلاقته مع الأرض في ظل الاحتلال

اياذ الرياحي، مركز بيسان للبحوث والانماء (رامالله، فلسطين)

### مقدمة:

إن حق البشر الوحيد في الأرض هو حق الاستعمال: أي حق الانتفاع بها، وممارسة هذا الحق من دون قيود محصورة فمن تم تعيينه مالكا وفي ورثته الشرعيين، والتمتع بالأرض هو وحده الذي يتفق مع المثل الأعلى.<sup>1</sup>

ومنذ بداية الغزو الصهيوني لفلسطين كانت الأرض محور المشروع الصهيوني، ومنذ الأيام الأولى لاحتلال الأراضي الفلسطينية عام 1948 بدأت "إسرائيل" بشن حملات تفرغ للأرض الفلسطينية وطرد المزارعين والسكان الأصليين عنها، وبدأت بسن جملة قوانين تساعدها على هدفها الاستراتيجي بالسيطرة على الأرض. وعقب حرب حزيران 1967 كان الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية في مركز سياسة الاحتلال وإجراءاته.

يتعرض الفلسطينيون في الأراضي الفلسطينية للعديد من الاعتداءات على أملاكهم الخاصة، سواء كانت هذه الاعتداءات من قبل السلطات الإسرائيلية أو المستوطنين أو اعتداءات من قبل جيش الاحتلال التي تتمثل بوضع اليد على الأراضي الفلسطينية وذلك من أجل استخدامها لغايات وحاجات عسكرية، كغرض إقامة معسكرات أو نقاط مراقبة أو شق طرق، أو توسيع المستعمرات هذا بالإضافة إلى استخدام بعض من الأراضي لإقامة جدار الفصل العنصري.

وكانت سلطات الاحتلال قد أصدرت في السبعينات، سلسلة من الأوامر العسكرية - التي تجاوزت 1200 أمر عسكري حتى بداية التسعينيات<sup>2</sup> - تتعلق بقوانين أملاك الدولة وأملاك الغائبين. وتمكنت السلطات الإسرائيلية بموجب تلك القوانين من مصادرة أجزاء واسعة من الأراضي غير المزروعة الموجودة في الضفة الغربية، بالإضافة إلى مصادرة الأراضي. حيث اعتبرت السلطات الإسرائيلية الأراضي التي كانت مسجلة بأسماء أشخاص لم تشملهم الإحصائيات الإسرائيلية بعد احتلالها للضفة الغربية وقطاع غزة عام 1967، أملاك غائبين وعملت على مصادرتها.

وبقراءة سريعة على إحصائيات جهاز الإحصاء المركزي الفلسطيني، نجد أن مساحة الأراضي المزروعة ما نسبته 20.7% من أرض فلسطين التاريخية، بينما شكلت مساحة الغابات والأحراش ما نسبته 9.7%، وشكلت الأراضي المبنية حوالي 5.7%، أما المساحة الأكبر فشكلت ما نسبته 63.9% وهي عبارة عن أراضي مفتوحة تقع معظمها تحت سيطرة الجيش حيث تستغل كمعسكرات ومناطق تدريب ومطارات ومناطق مغلقة.<sup>3</sup>

وضمن سياسته التوسعية المستمرة، صادر الاحتلال الإسرائيلي مئات الآلاف من الدونمات في الضفة الغربية من أصحابها الفلسطينيين لإقامة جدار الضم والتوسع، وتشير التقديرات حسب مسار الجدار إلى أن مساحة الأراضي الفلسطينية المعزولة والمحاصرة بين الجدار والخط الأخضر بلغت حوالي 733 كم<sup>2</sup> كما هو الحال في العام 2010 أي ما نسبته حوالي 13.0% من مساحة الضفة الغربية منها حوالي 348 كم<sup>2</sup> أراضي زراعية و 110 كم<sup>2</sup> مستغلة كمستعمرات وقواعد عسكرية و 250 كم<sup>2</sup> غابات ومناطق مفتوحة بالإضافة إلى 25 كم<sup>2</sup> أراضي مبنية فلسطينية.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> لين، وولتر. الصندوق القومي اليهودي. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1990. ص 18.

<sup>2</sup> شحادة، رجا. قانون المحتل: إسرائيل والضفة الغربية. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، جامعة الكويت، 1990. ص 2.

<sup>3</sup> الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني. 2011 منتجات وإصدارات:

[http://www.pcbs.gov.ps/Portals/\\_pcbs/PressRelease/land\\_day\\_A30032011.pdf](http://www.pcbs.gov.ps/Portals/_pcbs/PressRelease/land_day_A30032011.pdf)

<sup>4</sup> المرجع السابق.

وحقن يومنا هذا، فإن الأراضي المحدودة الخاضعة للسيطرة الفلسطينية ما زالت مهددة بالمصادرة من قبل السلطات الإسرائيلية بهدف استغلالها لمصلحتها العسكرية، مثل إقامة قواعد أو حواجز عسكرية، إقامة جدار الفصل العنصري، توسيع المستوطنات وغيرها.

### قراءة تاريخية لعمليات مصادرة الأراضي

انطلقت الحركة الصهيونية في تفسيراتها ومبرراتها لاحتلال فلسطين من مقولة ارض بلا شعب، وعمدت إلى جميع الجهود التي تفضي لتصديق هذه المقولة من خلال تفسيراتها لهذه المقولة.

ولأن هذا المنطق، وهذه التوصيفات للشعب الفلسطيني، مقبولة تماماً على الاستعمار الغربي، ولأن هذا الاستعمار، بما في ذلك الاستعمار الصهيوني، يجدها مبررة أخلاقياً، وغير متعارضة مع قيمه ومثله الإنسانية والحضارية، بسبب كل ذلك، كان على الحركة الصهيونية، ومبكراً، أن تفكر، وأن تضع خطط وبرامج اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه وإحلال المستعمرين اليهود محله. ليس ذلك فقط، بل كان عليها أن تفكر في أساليب، وأن تضع آليات تطبيق وتنفيذ مخططات وبرامج الاقتلاع والإحلال تلك. ولقد سارت هذه الخطط والبرامج متوافقة مع حجم كتلة المستعمرين اليهود في فلسطين. شكل الحصول على الأرض وامتلاكها المحاسن الأساسي للحركة الصهيونية. احتلال الأرض يعني توفير القاعدة لثبات المستعمرين في فلسطين، ومنصة انطلاق نحو تحقيق الهدف النهائي. ولأن الحصول على الأرض كان الهدف، كانت الوسيلة مبررة.<sup>5</sup>

فكرة استملاك الأرض، بأية وسيلة كانت، طرحت فكرة اقتلاع من يفلحوها. لكن فكرة الاقتلاع هذه، ظلت تتطور مع تطور حجم الكتلة الاستيطانية اليهودية .. بدأت كارهضات .. كما صورتها إحدى قصص سميلانسكي، التي نشرت في العام 1891. لكن أفكار الاقتلاع والترحيل، والأخذ بالرد فيها، لم تقتصر على المفكرين والكتاب الأوائل. وإنما أيضاً نمت الفكرة وتوطدت في فكر كبار الساسة وأولهم ثيودور هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية السياسية.<sup>6</sup>

فكرة استملاك الأرض في فلسطين في العقيدة الصهيونية والأفكار المطروحة في شأن استملاك الأراضي والتي تعكسها هذه الاقتراحات هي ذات أصول توراتية. ويستند أساس هذه الفكرة في الظاهر إلى مثل أعلى أو حتى إلى قضاء إلهي بتنظيم ثلاث أطراف: الله، والشعب، والأرض. وبما أن كلا الطرفين، الشعب والأرض، تربطه العلاقة ذاتها بالله، فيمكن رؤية هذه الأطراف على شكل مثلث رأسه الله، مالك الأرض والشعب وسيدهما. وفي هذا التدبير الإلهي خص الله كل شعب أو أمة بأرض معينة.<sup>7</sup>

إن استملاك الصندوق القومي اليهودي للأراضي في فلسطين المحتلة لم يحدث من فراغ، ولا يمكن تقويمه إلا في إطار علاقته بالثوابت السياسية والأيدولوجية الصهيونية. فلقد كان الصندوق شريكاً للحكومة الإسرائيلية في ملكية الأراضي وإدارتها، وساهم الشريكان معا في نشأة المواقف الإسرائيلية بالنسبة إلى الأراضي المحتلة وتأثر بها أيضاً. وانطوت هذه العملية إعادة تحديد واستمرار قاعدة رفع الحد الأدنى للأراضي التي تبدي إسرائيل استعدادها لاعتمادها أساساً للمفاوضات في شأن التسوية وهو ما يدعى بالموقف الأدنى.

إن قيام "إسرائيل" باستملاك أراضي الضفة الغربية منذ الاحتلال سنة 1967 قد جرى بواسطة:<sup>8</sup>

1. إدارة أراضي - إسرائيل (وهي أكبر المستملكين وعلى نطاق واسع)
2. الصندوق القومي اليهودي (بما في ذلك شركة همنوتا، الشركة الفرعية التابعة له)

<sup>5</sup> حمدان، عبد المجيد. إطلالة (2) على القضية الفلسطينية. المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديمقراطية. 2009. ص: 295-296.

<sup>6</sup> المرجع السابق. ص 297.

<sup>7</sup> لين، وولتر. مرجع سبق ذكره. ص 17.

<sup>8</sup> المرجع السابق. ص: 184-186.

3. شركات أخرى ومنظمات الاستيطان والأفراد الذين تزايد نشاطهم بصورة رئيسية بعد أيلول / سبتمبر 1979. وحين كانت الاستملاكات تتم عن طريق الشراء، كانت الفئات الثلاث تشتري أحيانا عن طريق همنوتا التي كانت تعمل عندئذ بمثابة وكيل لها.

ولقد تم استخدام أربعة أساليب للاستملاك:  
الأول: إعادة تملك الأراضي التي كان اليهود يملكونها قبل سنة 1948.  
ثانيا: الشراء مباشرة من المالك أو عبر الوسطاء، وكلا النوعين من هذا الشراء يمكن أن يكون صفقة مباشرة أو باللجوء إلى توكيل قانوني لا رجعة فيه.  
الأسلوب الثالث للاستملاك هو المصادرة، والمصادرة بحكم تعريفها، هي من عمل الإدارة أو الحكومة الإسرائيلية فحسب. ومن المفيد أن نتذكر أن شركة الصندوق الإسرائيلية تمتلك صلاحية المصادرة.  
الأسلوب الرابع للاستملاك هو إدعاء الملكية. ويختلف عن الأساليب الثلاثة السابقة التي استخدمت في استملاك الأراضي ذات الملكية الخاصة فقط، في أنه استخدم لاستملاك كل من أراضي الملكية الخاصة وأراضي الدولة. كما أنه لا يستخدم إلا من قبل إدارة أراضي - إسرائيل أو من قبل حكومة إسرائيل. ومن خلال هذا الأسلوب بالتحديد تم استملاك الأغلبية المطلقة من أراضي الضفة الغربية 2.656.000 دونم. من مساحة أراضي الضفة الغربية الكلية (5.705.000 دونم) وقد شملت ثلاث فئات من الأراضي هي: أملاك الدولة (الأردن)، وأملاك الغائبين (من الضفة الغربية) والأراضي التي ليس لها سجلات واضحة مثل الأراضي المشاع التابعة لقرية ما.

#### تشريع المصادرة في القوانين الإسرائيلية

من اجل السيطرة على الأرض الفلسطينية العربية المحتلة عام 1948 قامت "إسرائيل" بسن قوانين مصادرة وأيضا الإبقاء على استعمال قوانين انتدابية، أهم هذه القوانين:<sup>9</sup>  
1. قانون الأراضي - الاستملاك المصلحة العامة 1943- المهم تحديد المنفعة العامة على أنها "منفعة اليهود" - مثال: مصادرة أراضي عربية من الناصرة 1200 دونم عام 1953 أقيمت عليها أحياء من تنسيرت عيليت، استعمل منها فقط 80 دونم بناء مؤسسات حكومية.  
2. قانون الطوارئ 1945 : بموجب هذه الأنظمة فرضت السلطة الحكم العسكري على السكان العرب بهدف تقييد حركة السكان وكذلك إغلاق مناطق معينة باعتبارها مناطق عسكرية مغلقة تمهيدا للاستيلاء على الأرض.  
3. قانون الغابات 1926- إعلان عن مناطق كمحميات طبيعية وأحراش، بهدف تسليمها في الوقت المناسب لأيد يهودية.  
4. قانون الأراضي الموات عام 1921- يقصد بها الأراضي المهملة والميتة لطبيعتها غير المفتوحة وهي غير مسجلة باسم شخص أو مجموعة، حددت هذه الأرض على أنها كل أرض تبعد مسافة 1.5 ميل على آخر بيت في القرية، أو الأرض التي لا يصلها الصوت (استعمال مقاييس بدائية للسيطرة على الأرض).  
5. قانون تسوية الحقوق في الأراضي 1948- تم تعديله سنة 1969 بموجبه تم تسجيل مساحات كبيرة من الأراضي باسم الدولة باعتبارها الوريث للانتداب البريطاني.

بعد قيام دولة الاحتلال وخصوصا في فترة الحكم العسكري 1948 - 1966 تم سن العديد من قوانين المصادرة:

1. أنظمة الطوارئ بشأن فلاحه الأرض البور 1948 .
2. قانون وضع اليد على الأراضي في حالات الطوارئ 1950 .
3. قانون أملاك الغائبين 1950 .
4. قانون سلطة التطوير 1950 .

<sup>9</sup> ملف يوم الأرض الخالد. الموقع الالكتروني لـ المجموعة 194. [www.group194.net](http://www.group194.net)

5. قانون استملاك الأراضي 1952.
6. قانون صندوق أراضي إسرائيل 1953 .
7. قانون وضع اليد على الأراضي في حالات الطوارئ 1956.
8. قانون لتقادم الزمن 1958 .
9. قانون أراضي إسرائيل 1960.
10. قانون الأراضي 1969 .
11. قانون تسوية الأراضي.
12. قانون استملاك أراضي في النقب 1980

نستخلص من ذلك كله أن "الاستملاك الإسرائيلي للأراضي والاستيطان الذي تبع ذلك، وأدى إلى المزيد من الروابط الوثيقة بين إسرائيل والضفة الغربية، يسيران معاً. وكلما أخذ الاحتلال يفقد ما يميزه من الاستعمار والضم بحكم الأمر الواقع، ضعفت فرص الحل السلمي للنزاع في شأن فلسطين"<sup>10</sup>.

### محورية الأرض وأهميتها في الفكر التراثي الفلسطيني

الأرض محور الصراع، حيث انفتحت كافة الدراسات المتعلقة بفلسطين وتاريخها الحديث، على أن الأرض الفلسطينية كانت وما تزال لب وأساس الصراع مع الحركة الصهيونية العالمية.

وكانت الأرض موضوع عمل وحيوة غالبية الفلسطينيين قبل النكبة حيث كانت الطبقة الفلاحية تمثل الطبقة الرئيسية في التكوين الطبقي الفلسطيني، بينما شكلت أيضاً طموح الاستيطان الصهيوني لأجل مزيد من السيطرة على هذه الأراضي.<sup>11</sup>

والأرض تشكل القيمة الإنتاجية والتراثية في المجتمع الفلسطيني، وهي تمثل الوجود المادي والروحي للشعب الفلسطيني. الأرض هي العنصر الأساسي في الهوية والثقافة الفلسطينية، المجتمع الفلسطيني هو مجتمع زراعي بطبيعته قبل عام 1948. وبعد الاحتلال ومع التغييرات التي حصلت على المجتمع الفلسطيني من تحولات على بنيتها، فقد بقيت الأرض هي محور العملية الإنتاجية والاقتصاد الفلسطيني.

وبعد احتلال الأرض وتهجير الفلسطينيين عنها، الذي أدى إلى اندثار وتشريد الشرائح الطبقية الفلسطينية وفقدان الأرض، وأمام هذه الحقائق لم تعد الأرض الباقية للعربي تكفي حتى للاستهلاك البيئي.<sup>12</sup>

### نظرة عامة على أهم الطبقات المشكلية في المجتمع الفلسطيني:

#### الطبقة الفلاحية:

إن أهم ما تتميز به الأوضاع الاجتماعية الطبقية في بلادنا والبلدان العربية عموماً أنها أوضاع انتقالية، غير مستقرة وغير ثابتة والأشكال الجديدة تحمل في ثناياها العديد من ملامح القديم.

<sup>10</sup> هذه الخلاصة التي نتج إليها الكاتب ولتر لين في كتابه عام 1990، الذي أشار إليها بعد المقال التحليلي "مسألة ديمقراطية" ل هيرش غودمان، المراسل العسكري لصحيفة *The Jerusalem Post* المنشور في 19 آب 1983.

لين، ولتر. مرجع سبق ذكره. ص 188.

<sup>11</sup> محمد، جبريل؛ وواصف نزال. قرى بلا فلاحين، "دراسة في التركيب الطبقي لفلسطيني 48". القدس: مركز الزهراء للدراسات والأبحاث، كانون الثاني 1994. ص 21.

<sup>12</sup> المرجع السابق. ص 31.

الطبقة الفلاحية هي الطبقة الرئيسية في المجتمع الفلسطيني، حيث شكل الفلاحون مادة العقل النضالي الأساسية في هذا المجتمع، وما طرأ عليهم من تغييرات لم يحدث بفعل التطور الموضوعي لفلسطين، بل إن وضعهم الحالي هو نتاج لعملية الاغتصاب، وتشريد الشعب الفلسطيني وثمره نهب الحركة الصهيونية للأرض، وتدمير القرى، والسيطرة على مصادر المياه، والتحكم بالسوق.<sup>13</sup>

هي طبقة متشكلة وقائمة تميزت بوجودها وانتشارها عبر أكثر من ألف قرية على الأرض الفلسطينية، بالإضافة إلى دورها التاريخي وعراقتها وتراثها الممتد في الماضي والمتصل في الحاضر حتى اللحظة، رغم ابتعادها واقتلاعها القسري عن أرضها وقراها عام 1948 والفلاحون الفلسطينيون كانوا وقوداً للثورة قبل عام 1948 في حين لم يكن كبار الملاك سوى واجهة هشنة تصدرت قيادة الحركة الوطنية ضمن آفاق محددة لم تكن تلتقي مع آفاق وتطلعات الجماهير الثورية العنقوية، وكان دورها هو امتصاص وتحديث الحالة الثورية لدى فقراء بلادنا.<sup>14</sup>

وكان لفصل الضفة عن القطاع بعد النكبة عام 1948 أثره القوي في أوساط الفلاحين والجماهير الشعبية الفقيرة التي تعرضت لشتى أنواع الاضطهاد والحرمان السياسي والطبقي معاً، مما اضطر قطاعات واسعة منها إلى الهجرة للخارج أو العمل في البلدان العربية النفطية، إلى جانب نزوح أعداد كبيرة من سكان الضفة عموماً واللاجئين بصورة خاصة إلى الإقامة والعمل في الضفة الشرقية (الأردن).<sup>15</sup>

والاحتلال عام 1967 مما رافقه من تدمير الاقتصاد من صناعة وزراعة دفع الفلاحين إلى التوجه إلى سوق العمل الإسرائيلي. مما نتج عنه ضعف الدور السياسي العنقوي والمنظم للفلاح الفلسطيني والقرى الفلسطينية عموماً، ساهم في ذلك قيام السلطة الوطنية وقبلها م. ت. ف بصورة مباشرة وغير مباشرة في تدعيم وتوليد الشرائح الطفيلية المتمثلة في رموز التخلف أو القوى والرموز التقليدية العشائرية والحمايلية الريفية والمناطقية، التي كان لبروزها وهيمنتها أثراً سلبياً في إعاقه تفعيل ذلك الدور السياسي للفلاحين في الريف الفلسطيني.

إن معالجة قضية محورية الأرض والعلاقة بها بالنسبة للحركة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع الفلسطيني، هذه المعالجة التي نجدها كافية لإلقاء الضوء على كون الصهيونية لم تستهدف الأرض فقط كمضمون اقتصادي، بل استهدفتها كمضمون اقتصادي عبر الاحتلال والاستيطان، وسياسي عبر تأسيس الكيان السياسي للحركة الصهيونية في شكل (دولة)، وثقافي عبر وضع المعادلة كالتالي: إن أي استنزاع لمهاجر جديد ومستوطن على الأرض الفلسطينية، يعني اقتلاع لمواطن فلسطيني عن أرضه، وفقدانه لكثير من المقومات العملية والروحية التي تربطه بالأرض، والطقوس والرموز الاجتماعية المتولدة عن العلاقة الحميمة والاتصاق بالأرض، شكلت على مدى قرون عنصراً أساسياً من عناصر الثقافة الاجتماعية للقرية، وموضوعاً حياً لبناء الهوية، وليس فقط مجرد موضوع عمل جامد، إن الأرض هنا كمفهوم، ليست مجرد القطعة المغروزة، ولا هي أيضاً مجرد إنتاجها، بل ما تحمله من علاقات اجتماعية، أي بما يجعلها تشكل الوطن كمفهوم سياسي - اجتماعي.<sup>16</sup>

وبالتالي فإن انتزاع الفلاح من أرضه، أوجد حالة مؤلمة من الانقطاع الثقافي في الأجيال اللاحقة وولد ظاهرة الحنين في الشعر والأدب، وفي الأعمال الفلكلورية الفلسطينية إلى أرض أي أن الانتزاع خلق ظاهرة اللاحق في وطنه، وخلق ظاهرة تعميق الغربة عن المجتمع الصهيوني وولد في توارث الذاكرة الشعبية، استمرار لثقافة الفلاح، لا بل وحرصاً في كثير من الأحيان على ترسيخ ثقافة فلاحية في الطقوس المناسبة المختلفة تأكيداً على الهوية والانتماء الوطني.<sup>17</sup>

<sup>13</sup> المرجع السابق. ص 43.

<sup>14</sup> الصوراني، غازي. التحولات الاجتماعية ودور اليسار في المجتمع الفلسطيني. موقع الحوار المثمن:

<http://www.ahewar.org/debat/print.art.asp?t=0&aid=19177&ac=1>

<sup>15</sup> المرجع السابق.

<sup>16</sup> محمد، جبريل؛ وواصف نزال. مرجع سبق ذكره. ص: 43 - 44.

<sup>17</sup> المرجع السابق. ص 144.

## وصف عام للفكر الشبابي في مواجهة التحديات

أظهر الناس نزعة طبيعية نحو تغيير الظروف التي تحرمهم من حقوقهم، وحسن العيش والعدالة أو التنمية. وتطویر العلاقات والقضية المشتركة سيكونون أكثر احتمالاً لتقدم مطالب جماعية واتخاذ تحرك جماعي تكتيكي أو أكثر من الأهداف الإستراتيجية.

إن هذه الأوضاع التي تعيشها جماهير الفلاحين الفلسطينيين بما يمثلونه من كتلة اجتماعية إنتاجية فقيرة، تدفع القوى الوطنية والمجتمعية إلى الاهتمام بقضاياهم ووعي تفاصيل أوضاعهم الحياتية عبر تنظيمهم ومعايشتهم، بهدف مواجهة كل أشكال المعاناة التي يتعرضون لها من الاحتلال والمستوطنون من جهة أو أشكال الاستغلال الداخلي من جهة أخرى.

لقد اتسم نضال الفلسطينيين ضد سياسة مصادرة الأراضي وتفريغها من المكون المادي والروحي بطابع الدفاع عن الأرض واستصلاحها زراعياً بأحسن الأحوال. ولم يجر أبداً تنظيم حملة وطنية لتعمير الأراضي الفلسطينية التي يستهدفها الاستيطان من خلال إقامة مراكز حضرية (شبابية أو تعاونية) عليها ذات بنية سكنية وصناعية وزراعية منتجة، حيث كان يجري التصدي لمصادرة الأراضي من خلال أصحاب الأراضي المتضررين مباشرة من عملية المصادرة وبتضامن من فئات محلية أو دولية وفي غالب الحالات إن لم يكن مجملها ينجح الاحتلال بمصادرة الأرض وتصبح فيما بعد مراكز كولونيالية تخدم إستراتيجية الاحتلال بمنع قيام كيان فلسطيني مستقل.

في حالة لو نظرنا إلى الفلاحين نلاحظ عدم وجود ونضوج الوعي الذاتي لديهم وعدم وجود ما يمثلهم بسبب تراجع القطاع الإنتاجي الزراعي، وارتباط الأرض بالصراع الوطني وليس بالقضية الاجتماعية، ففي بعض البلدان يكون الصراع مرتبط مع أصحاب أرباب العمل، فهناك شبه غياب للشروط الاقتصادية التي ترافق ظهور أجسام أو أطر منظمة تساهم في الدفاع عن الأرض ضد السياسات والمخططات الصهيونية.

إن هناك تحولات ومظاهر سلبية في البنية الاجتماعية والبنية القيمية والأخلاقية لمجتمعنا الفلسطيني، وهو أمر ناتج عن طبيعة السلطة المهيمنة، إذ أن مسار وتكون النمط الاجتماعي الاقتصادي الذي تمثله السلطة الفلسطينية لا يمكن إلا أن يفرز مثل هذه المظاهر والتحويلات.

والطبقة العاملة الناتجة عن تحول الطبقة الفلاحية ونقصد بها الفقراء والكادحين عموماً الذين كانوا - وما زالوا - في طليعة نضال شعبنا في تاريخه القديم والحديث والمعاصر. وفي المرحلة الحالية وما نعيشه من أوضاع اقتصادية صعبة للغاية وخاصة في ظل الانتفاضة الثانية وارتفاع نسبة البطالة والفقير والوضع المعيشي الصعب وانعدام اليقين حول المستقبل الوطني، يدفع بقطاعات واسعة من الجمهور الفلسطيني، وتحديدًا الفئات العمالية العاطلة عن العمل والمهمشة، إلى منح الأولوية للقضايا المعيشية - بأي ثمن - على حساب القضايا الوطنية،<sup>18</sup> هذه الفئات التي تمثل العائلات المتوسطة الحال والتي تحتضن النسبة الأكبر من جيل الشباب الفلسطيني.

بعد التحول الذي أصاب البنية الطبقيّة للشعب الفلسطيني من طبقة الفلاحين والاعتماد الأساسي على الأرض، إلى عمال، أصبح الارتباط بالأرض لا يمثل جوهر القضية الفلسطينية في المعادلة الوطنية لدى أغلبية الفئة المتنفذة.

من هذا التحول، سنحاول من خلال قراءة سريعة على أوضاع الشباب الفلسطيني والفكر الذي يحركهم في تجاه المدافعة عن الأرض الفلسطينية في مواجهة المخططات "الإسرائيلية" الاحتلالية لسلب الأرض ومحو أهميتها في الذاكرة الجمعية الفلسطينية.

يواجه الشباب الفلسطيني اليوم انقسام توجهاته نحو الأرض، لا يعدو كونه غير واعٍ لأهمية الأرض في الفكر المقاوم لمخططات الاحتلال، وإنما للظروف الموضوعية والذاتية التي تحيط به في توجهه نحو الاعتماد والعمل في الأرض لا تساعده على المضي في هذا الاتجاه. كون أن الاحتلال بإجراءاته العسكرية في مصادرة الأرض وتحويلها، دفع الشباب إلى اتخاذ أحد المسارين، الأول، المسار الذي سلكه أهاليهم بالتركيز على القضايا المعيشية بالأساس. والثاني، التحدي للسياسات الإسرائيلية والتركيز على القضايا الوطنية.

<sup>18</sup> الصوراني، غازي. مرجع سبق ذكره.

في العقد الأخير ونتيجة ظروف البطالة والفقر المدقع في الأراضي الفلسطينية بدأت العائلات الفلسطينية في التوجه نحو الاهتمام بالأرض، وبالتالي هذا يساهم في زيادة الارتباط بالأرض بالنسبة إلى الأجيال الشابة التي لم تعرف أهمية ارتباط الأرض نتيجة الهجمات والسياسات المستمرة لمصادرة الأراضي الفلسطينية وسياسات تفرغ الارتباط الوجداني بالأرض الفلسطينية.

من أجل ذلك كان هناك عدة حملات شبابية للمحافظة على الأراضي الزراعية وغير الزراعية وحملات الدفاع ضد الهجمات الاستيطانية من جيش الاحتلال ومستوطنيه التي تنشط على مدار العام وبالتحديد في مواسم قطف الزيتون في القرى المخاضية للمستوطنات في الضفة الغربية بما فيها القدس المحتلة. لكنها بقيت دون المستوى المطلوب، لذا المطلوب هو صياغة برنامج حيوي تنموي وطني مقاوم لسياسات الاحتلال وإجراءاته لفرض الأمر الواقع. هذا البرنامج يكون عماده الطبقات الشعبية والشباب والفلاحين.

إن حالة الاغتراب السليبي التي يعيشها الشباب الفلسطيني وعموم المجتمع بسبب فقدان الأرض على مدار سنوات الاحتلال الصهيوني منذ أن بدأ بإنشاء مستعمراته في نهايات القرن التاسع عشر أضحى واضحة من خلال الحملات التمسك بالأرض في السنوات الأخيرة الماضية من خلال عدة فعاليات ومواجهات مع الاحتلال.

وحيث أننا نعلم ونعي أن المجتمع الفلسطيني هو مجتمع زراعي وأغلبه هم من الفلاحين ونتيجة الاحتلال سنة 48 ونتيجة التشريد والنكبة ونزوح المئات من الآلاف إلى الدول العربية تحول أغلبية المجتمع الفلسطيني إلى العمالة ولكن نتيجة انحسار فرص العمل وتطور الحياة والظروف الصعبة في المخيمات لجأ الفلسطينيون إلى التعليم وتحول النسبة الأكبر من الفلسطينيين إلى التعليم كسلاح لمواجهة ضد الاحتلال والعدو الصهيوني، الذي يصب في نهاية الأمر في المحافظة على الثبات على الأرض.

إلا أن الثابت أيضا أن الشباب يتعرضون إلى حملات منظمة من الاعتداء على النفس والجسد من قبل الاحتلال يتمثل بالضرب والشتيم والسجن والاستشهاد والمنع من إكمال التعليم بهدف تدمير هذه الفئة نفسيا واجتماعيا ودفعها للهجرة. وبالتالي تفرغ المجتمع من العنصر الهام الذي في مكونه يحافظ على الأرض بثباته من المصادرة والتفريغ الوجداني لمفهوم الأرض في الفكر التوعوي للشعب الفلسطيني.

وانحسار مفهوم العمل التطوعي لدى غالبية الشباب بسبب تحول المفاهيم في العقدين الآخرين، حيث كان العمل التطوعي يساهم في المحافظة على زراعة الأرض من خلال الحملات التي كان تقوم بها المنظمات الأهلية والاتحادات الشبابية التابعة للأحزاب والفصائل الفلسطينية مثل قطف الزيتون ومواسم الزراعة المختلفة.

إلى أن التمويل والدعم الأجنبي أدى إلى الإسراع في تحول كان يأخذ مجراه، ألا وهو التحول من الإيديولوجيات الراديكالية للحركات الشعبية إلى أحداث تقتصر بشكل محدد على التنمية، وأصبحت المنظمات غير الحكومية منفصلة عن التنظيمات السياسية، ومنعزلة عن القاعدة الشعبية، وكفت عن الوجود عملية التنظيم الجماهيري - حيث ألغى مفهوم العمل التطوعي وأصبح الشباب لا يعون مفاهيم المحافظة على الأرض والعمل التطوعي وأهمية الزراعة - حيث بعد انعقاد اتفاقية أوسلو عام 1993 ومجيء السلطة الوطنية عام 1994، بدأت مرحلة جديدة ومميزة في التاريخ الفلسطيني على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي وبدأ الحديث عن تشكيل مجتمع مدني في الضفة والقطاع، ضمن النظام الجديد، النظام الرأسمالي الليبرالي. والتي يؤكد على شخصية النظام الاقتصادي للمجتمع المدني، ولكن هذا النظام يتسم بالخلل، فهو لا يقترح أكثر من وجود سلسلة من الدوائر الفعالة تتجه في سيرها من الدولة إلى الاقتصاد عبر المجتمع المدني، ومن الاقتصاد إلى المجتمع المدني عن طريق الدولة.<sup>19</sup>

<sup>19</sup> هوكنز، جوليا. "المجتمع المدني الفلسطيني والنظام العالمي الجديد". 1996. مجلة السياسة الفلسطينية. السنة الثالثة، العدد التاسع. شتاء 1999. ص 19.

لقد أخذت المنظمات غير الحكومية تركز في عملها على نشر ثقافة، تحد من مكونات المواجهة في الثقافة والوعي الاجتماعي، من خلال ما تسميه نشر "ثقافة لا عنيفة". ويسعى أصحاب هذا الاتجاه إلى تعميم هذه المفاهيم والمناهج "السلمية" من خلال الدعم الذي تلقاه من المؤسسات الدولية والأجنبية مثل الوكالة الدولية للتنمية الأمريكية والإتحاد الأوروبي.<sup>20</sup> وهذه السياسة تهدف إلى تفرغ الشباب من مفاهيم المقاومة والتي تصب في النهاية للتخلي عن التراث والأرض ومحورية الصراع مع الحركة الصهيونية.

وهذا يشكل خطر على اختراق مناعة ووعي الطبقات الشعبية. أن المنظمات غير الحكومية، وما تسمى منظمات المجتمع المدني ومنظمات حقوق الإنسان التي تمولها وترعاها دول المركز الرأسمالي ومنها الولايات المتحدة خاصة، تركز جهدها على تقويض الثقافة العربية لتحل محلها ثقافة التطبيع مع المركز الرأسمالي ومع الصهيونية، ولذا فهي تقدم ميزانيات هائلة في المناطق المحتلة، بشكل خاص على مشاريع ثقافية وفنية واجتماعية مشتركة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، أن خارطة الطريق قد نصت في موضوعين من صفحاتها القليلة دعم هذه المنظمات. إن الضخ الإعلامي والثقافي الذي يقوم به الغرب، والذي يركز على تعميق وتبرير وحتى تقديس التطبيع مع الكيان الصهيوني هو أمر في غاية الخطورة لأنه اقتلاع للثقافة.<sup>21</sup> مما يؤثر على وعي وثقافة الطبقات الشعبية والجماهير والتي عمادها الشباب اليوم وبالتالي على إمكانية بناء حركة احتجاجية أو مشروع قومي وطني يدافع عن حق تقرير المصير في فلسطين، وعلى مفاهيم وروابط الصراع لان أي مشروع قومي شامل لا بد أن يعتمد على الطبقات الشعبية على الأقل.

في جميع المناقشات حول قوة العمل التطوعي، لم يتعرض إلا القليل لبعض الأمور العملية مثل: أنت لا تستطيع أن تظلي المنزل بدون فرشاة أو بدون طلاء. يكمن وراء هذه النقطة سؤال كبير وهام وهو: هل نقذف بالمسؤوليات الكبيرة على عاتق القطاع التطوعي بدون التفكير أولاً في كيفية تسليح المتطوعين والمنظمات التي ينتمون إليها بالأدوات التي تصنع النجاح.<sup>22</sup>

حيث يشير التعقل إلى انه إذا لم يتم توظيف خدمة المجتمع بطريقة حكيمة، فإنها لن تؤدي إلى أي شيء، بل قد يؤدي أحياناً إلى نتائج سلبية أكثر من الإيجابية. فالعمل التطوعي إذا تم بصورة جيدة، هو عمل معقد له نتائج. وإذا لم يتم بصورة جيدة، فإنه لا يحقق شيئاً، أو على أسوأ الفروض يمكن أن يؤدي إلى زيادة حرمان ذلك الوحيد الذي يعاني، كما قد يؤثر سلباً على التعاطف الذي يشعر به هؤلاء الذين يرغبون في تقديم خدماتهم.<sup>23</sup>

#### خاتمة:

إن هناك العديد من العوامل الداخلية والخارجية التي تعمل على خلق بيئة مناسبة لبناء حركة احتجاجية للشباب الفلسطيني أو حتى لصياغة برنامج قومي وطني كامل، وهي في الوقت نفسه تعمل على إجهاد وقتل أي محاولة لخلق مناخ مناسب لذلك، فليس هناك ربط بين القضايا الاجتماعية والوطنية، والفلسطينيون مترددون بشأن الأمور التي يجب الحفاظ عليها وتلك التي ينبغي تغييرها، فمن جانب يريدون التغيير ولكن لا يشاركون ولا يجدون من يساندتهم في التغيير حيث أن الحرمان الاقتصادي والأوضاع الاقتصادية الصعبة التي يعيشها المجتمع الفلسطيني تؤثر على إمكانية توجه الجماهير إلى العمل لبناء قاعدة متينة تخلق برنامج وطني أو حركات ذات بعد وطني. ومن جانب آخر هناك عدم الثقة بالقيادات والنخبة الوطنية ووجود الفجوة بين المنظمات غير الحكومية والجماهير، مما يؤدي إلى عزوف الجماهير عن الالتحاق بتلك البرامج.

<sup>20</sup> عبد العاطي، صلاح. المنظمات الأهلية .. هل يمكن أن تكون بديل الحركات الاجتماعية. موقع الحوار المتمدن:

[www.rezgar.com/m.asp?!=492](http://www.rezgar.com/m.asp?!=492)

<sup>21</sup> سمارة، عادل. "مواجهة التطبيع بالتنمية بالحماية الشعبية". 2003. مجلة الشعراء. ع: 22. خريف 2003. رام الله، فلسطين: المركز

الثقافي الفلسطيني "بيت الشعر". ص: 324 - 330.

<sup>22</sup> ديون الابن، إ.ج. جهود العمل التطوعي. القاهرة: الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، 2001. ص 27.

<sup>23</sup> المرجع السابق. ص: 114 - 115.



في ظل شروط صارمة ومقررة تاريخياً فإن بعض النقايس الاجتماعية الثقافية التي ظلت ساكنة حتى الآن، يمكن أن تصبح عاملاً ونشطاً يحدث زلزالاً اجتماعياً بالقدر الكافي للقضاء ليس فقط على النظم والطبقات بل أيضاً للقضاء على الرؤيا العالمية.

وفي ظل اشتداد العدوان الذي يعبر عن أهدافه بالسيطرة على ثرواتنا والتحكم بمصير أجيالنا في المستقبل سيشكل عاملاً أساسياً في بلورة حركات وبرامج جديدة لا بد وأن يكون مكون المقاومة بكافة أشكالها احد المكونات الأساسية لها.

## المصادر والمراجع:

أولاً: الكتب والدراسات:

- حمدان، عبد المجيد. إطلالة (2) على القضية الفلسطينية. المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديمقراطية. 2009.
- ديون الابن، إ.ج. جهود العمل التطوعي. القاهرة: الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، ط.1، 2001.
- شحادة، رجا. قانون المحتل: إسرائيل والصفة الغربية. ترجمة: محمود زايد. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، جامعة الكويت، ط.1، 1990.
- لين، وولتر. الصندوق القومي اليهودي. ترجمة: محمود زايد، رضوان مولوي. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط.1، 1990.
- محمد، جبريل؛ وواصف نزال. قرى بلا فلاحين، "دراسة في التركيب الطبقي لفلسطيني 48". القدس: مركز الزهراء للدراسات والأبحاث، ط.1، كانون الثاني 1994.

ثانياً: المقالات والمواقع الالكترونية

- سمارة، عادل. 2003. "مواجهة التطبيع بالتنمية بالحماية الشعبية". مجلة الشعراء. ع: 22. حريف 2003. رام الله، فلسطين: المركز الثقافي الفلسطيني "بيت الشعر". ص: 315-337.
- هوكنز، جوليا. 1996. "الاجتمع المدني الفلسطيني والنظام العالمي الجديد". مجلة السياسة الفلسطينية. السنة الثالثة، العدد التاسع. شتاء 1999. ص: 17-29.
- الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني: منتجات وإصدارات. 2011، [http://www.pcbs.gov.ps/Portals/\\_pcbs/PressRelease/land\\_day\\_A30032011.pdf](http://www.pcbs.gov.ps/Portals/_pcbs/PressRelease/land_day_A30032011.pdf)
- ملف يوم الأرض الخالد، المجموعة 194. 2006/3/30، [www.group194.net](http://www.group194.net)
- عبد العاطي، صلاح. المنظمات الأهلية .. هل يمكن أن تكون بديل الحركات الاجتماعية. موقع الحوار المتمدن. 2005، [www.rezgar.com/m.asp?!=492](http://www.rezgar.com/m.asp?!=492)
- الصوراني، غازي. التحولات الاجتماعية ودور اليسار في المجتمع الفلسطيني. موقع الحوار المتمدن. 2004/6/9، <http://www.ahewar.org/debat/print.art.asp?t=0&aid=19177&ac=1>